

1-3 إشكالية المصطلح عند مصطفى ناصف:

تعتبر إشكالية المصطلح النقدي من أهم الإشكاليات المعرفية التي طالت النقد العربي إن لم تكن أهمها ذلك أن المصطلح هو المفتاح الإجرائي والفعلي الذي بواسطته تفتح مغاليق النصوص والعلوم المختلفة ثم إنه ينزع الغموض عن المعاني المكتنزة داخل هذه النصوص، وتتوقف فاعلية المصطلحات النقدية على حسن توظيفها وتمثيلها وحسن استثمارها من قبل الناقد والباحث إلا أن المعضلة الحقيقية التي وقع فيها النقد العربي الحديث هي مدي الإفادة أو الاستفادة من مصطلحات النقد الغربي التي تم استقبالتها في بيئة النقد العربي، ثم الاغفال الذي يحدث في أوساط النقد العربي الحديث للتراث النقدي أو سوء الفهم له، وبالتالي وقع الكثير من النقاد العرب الحداثيين في خندق الانبهار وحفرة التسرع واللهث وراء استثمار الوافد "فحينما ننقل نحن الحداثيين العرب المصطلح النقدي الجديد في عزلة عن خلفيته الفكرية والفلسفية فإنه يفرغ من دلالاته ويفقد القدرة على أن يحدد معناه إذا نقلناه بعواقبه الفلسفية أدى إلى الفوضى والاضطراب إذ أن القيم المعرفية القادمة مع المصطلح تختلف بل تتعارض أحيانا مع القيم المعرفية التي طورها الفكر العربي المختلف"¹، وما يسبب الفوضى أكثر هو التعامل مع هذه المرجعيات وكأنها مسلمت مشاعة بين الأجناس وفي كل الحضارات، هنا تكمن الخطورة المعرفية في اتساع الطرح الذي يزيد من الإشكالية، وامعانا في مدى أزمة وخطورة إشكالية المصطلح النقدي اردنا أن نحاول كشف اركان هذه الإشكالية عند "مصطفى ناصف" أي كيف ينظر هذا الأخير إلى هذه الإشكالية بغية إضاءة جزء بسيط من مشروعه النقدي الذي خص فيه المصطلح النقدي بالدراسة والمساءلة قصد الوصول بالعملية القرائية إلى آمام الفهم والتفسير.

1 - معضلة المعنى وإشكاليته وعلاقته بالمصطلح:

إن إشكالية المعنى عند ناصف مثلث النمطية تقريبا في جُل مؤلفاته وكتبه النقدية والبلاغية فقد شغلت حيزا لا بأس به من مشروعه النقدي، سواء في البحث عنه في النصوص الشعرية أو في المصنفات البلاغية القديمة أو حتى استثماره الوافد من النقد الغربي، فقد كانت قضية المعنى الجزء الرئيسي في جميع متون ناصف النقدية وإشكالية المعنى عند ناصف لا تبعد كثيرا عن المصطلح النقدي لأن المصطلح يحمل المعنى والمعنى يضمن السير الصحيح للمصطلح "وإن مصطفى ناصف في نظرية المعنى في النقد العربي" كان معنيا بقراءة التراث النقدي وبشكل خاص مسألة المعنى في ذلك التراث مقيما جدلا بين الأفكار القديمة والأفكار الحديثة التي دارت حول هذه المسألة، إن الحاجة بدت ملحّة فيما يظن ناصف إل فكرة تمييز الأفكار بعضها البعض"²، وبالتالي إشكالية المصطلح النقدي ترتبط كثيرا بإشكالية المعنى من خلال فكرة التمييز التي طرحها

¹ عبد العزيز حمودة، المرايا المخدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص: 55.

² مصطفى بيومي عبد السلام، دوائر الاختلاف، قراءات التراث النقدي، ميم للنشر، ط2، مصر، ص: 203.

الناقد وليس التمييز بمعنى الفصل والعزل إنما فك الغموض عن النقد القديم عن طرق الثقافة الحديثة لأن النقد القديم يجب أن يفهم في ضوء دراسات تختلف عنه في الوقت يلقي الضوء عليه. إن المعنى هو أساس المصطلح فهو يستوعبه ويوجهه ويحل من إشكاليته وبالتالي نجاح المعنى وفك إشكاليته من نجاح المصطلح، فنجد أنفسنا امام قضية أحر هي قضية اللفظ فلا يوجد لفظ من دون معنى، ولا معنى بدون لفظ، فإذا استطعنا تجاوز قضية اللفظ والمعنى استطعنا إنجاز مصطلحات لا تثير الإشكالية.

فقضية المعنى تتبعها بطبيعة الحال قضية اللفظ وبالتالي خصص ناصف دراسة اللفظ أيضا على غرار المعنى في فصله الثاني من الكتاب السابق الذكر، وجاء هذا الفصل تحت عنوان "الصورة العارية والصورة المنمقة ويخصه لمشكلة اللفظ والمعنى ويبدأه بمقولة الجاحظ المشهورة "المعاني مطروحة على الطريق يعرفها العربي والعجمي، القروي والبدوي، وإنما الشعر صياغة وجنس من التصوير، ويرى ناصف أن النقد العربي كله لا يعدو أن يكون حاشية متوسعة على عبارة الجاحظ لدينا المعنى السابق على المجاز أو المعنى المكشوف على حد عبارة الآدمي، وتأتي العبارة تخرج هذا المعنى وتبره بقوة ودقة أكبر"¹.

وبالتالي يرى ناصف أن العبارة تنطوي تحت مفهوم واحد هو مفهوم الصورة العارية والصورة المنمقة "فالمعنى مشوف أو عاري والصورة المنمقة هي جنس التأليف أو براعة الالفاظ لدينا أصل وتحسين فكلمة الالفاظ يراد بها تحسن المعنى العادي حتى يجدوا خلايا حينما نصل إلى هذه النتيجة، يبدو مفهوم المعنى العادي في النقد العربي الحديث مضطربا غير مقبول"²، وبالتالي مصطفى ناصف يطرح إشكالية اللفظ والمعنى التي تتفرع منها إشكالية المصطلح فالصورة العارية والمنمقة تضفي بنا إلى المصطلح لامحالة من منطلق أن الصورة تحمل لفظا ومعنى إذن تحمل مصطلح مكتمل المعالم "فالعمل المصطلحي هو مزاجية وتوفيق وليس خرق وهتك وتحليق بل هو القبول بالا بتيمي كما هو موضوع ومحاولة فهمه بجمللة أدوات إجرائية لا تكتفي بفرادة التسمية بل تتعداه إلى تنوع أساليب الفهم والمعالجة لعدم مقاربة التسمية في حد ذاتها ولتداخلها مع مجالات معرفية متعددة"³.

وعليه فالمعاني تحدد في إناء اللفظ والمصطلح ينغرز وفقا لذلك، ويجب اتزان المعنى في هذا الإناء لا هو متسع فيغرق المعنى ولا هو ضيق فتعرض للحناق، إذن من هذا الكلام نلاحظ لأن المصطلح يتمثل حسب الاختصاص أيضا فالعلوم مصطلحاتها وبالتالي معانيها وألفاظها هذا من جهة ومن جهة أخرى خصوصية

¹ مصطفى بيومي عبد السلام، دوائر الاختلاف، قراءات التراث النقدي، ص: 206.

² مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد الادبي، دار الاندلس، ص: 38 - 39.

³ عقاب بلخير، نسقية المصطلح وبدائله المعرفية، دراسة نقدية، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2011، ص: 20.

المصطلح وبنائه النسقي ومرجعيته، إذن إشكالية المصطلح عند ناصف تسابير إشكالية المعنى واللفظ وبينهما علاقة استلزام.

2 - اللغة واشكالية المصطلح:

عبر مؤلفات مصطفى ناصف النقدية والبلاغية وفي الكثير من الأحيان أثار قضية اللغة وإشكالياتها ثم علاقتها بالكثير من القضايا، نجد ذلك متمثلاً في كتابه "اللغة والتفسير والتواصل" حيث حاول فيه كشف العلاقة المتبادلة بين اللغة والتفسير والتواصل، فقد وضع اللغة بين التفسير والتواصل أما بمعزل عنهما كل شيء يصبح محل ريب وشك، فاللغة قضية أثرت منذ القدم على مر العصور والأزمان من خلال قضايا الأدب والنقد وحق الفلسفة وهي قضية تبنى من خلالها قضايا هامة وجادة، وعلى غرار الكتاب الأول السالف الذكر فإن مصطفى ناصف تحدث عن اللغة بشكل مفصل في كتابه "محاورات مع النثر الأدبي" وتحديدًا في فصله الموسوم "اللغة بين ثقافتين"، أثار قضية اللغة من منطلق سوء استعمالها وهذا يعتبر رابطاً بينها وبين قضية إشكالية المصطلح أيضاً.

فاللغة جوهر كل شيء وإذا استقامت اللغة واستقام استعمالها استقام المصطلح هو الآخر، وهذا ظاهر في قول ناصف حينما قال "من غرائب الجاحظ وكثرة أن يبدأ كتاب البيان والتبيين بقوله: اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، وفتنة القول قد تكون وجهاً من وجوه سوء استعمال اللغة يقضي على التواصل ويحول بين المرء ونفسه كما يحول بيننا وبين الناس"¹.

أدرك ناصف أن اللغة تنطوي على مخاطر وأيد قول الجاحظ في ذلك، وسوء استخدامها ينطوي على فتنة فلا يستطيع المرء أن يبني جسر الحق بينه وبين نفسه ثم بينه وبين الناس وهكذا حال المصطلح، فاللغة إذا ساء استعمالها لا يعرف المصطلح الحق والطريق، وأن فتنة القول عند الجاحظ ربطها ناصف بمصطلح الترجسية، كذلك هو حال سوء استعمال المصطلح، فكل ناقد يدعي لقوله ومصطلحه الترجسية ويفضله على ناقد آخر أو مصطلح ناقد آخر، وبذلك وقعنا في فتنة أشد من فتنة اللغة.

وبما أن المصطلح يحمل صفة الاصطلاح والاتفاق فإنه يتناقض مع الفتنة التي تناقض هي بدورها التواصل الذي هو أساس وجوه المصطلح، أما عند ناصف فقد خص إشكالية اللغة في مؤلف البيان والتبيين، فهو يرى أنه قرأ قراءة مغلوبة ومُحْمَل حملاً ثقيلاً ليس بحمله، فظنوا أن الجاحظ عني بكتابه القواعد، "قد يكون صحيحاً لكن أهداف الكتاب الأساسية تتجاوز الحدود والأقسام أهداف الكتاب في نظري أقرب إل تصوير متاعب الاستعمال اللغوي والتطور الذي جد على اللغة العربية واختلاف موازين النظر من الناحية التاريخية وعلاقة

¹ مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص: 13.

اللغة بالمجتمع ووظائف اللغة أيضا"¹، إذن اللغة لا تكشف عن دواخلها فحسب، بل تكشف عن علاقتها بالمتكلم والمجتمع أيضا، وهذا ما يضيف بنا إلى المصطلح، فإن استطاع النقاد العرب الحد من متاعب الاستعمال اللغوي يستطيع إذن تجاوز متاعب المصطلح النقدي هو الآخر، وبالتالي يجب أن نكون بعيدين عن القواعد قريين من الحياة العربية في المجتمع، ثم يجب أن تتفوق اللغة على العوائق التي تحاصرها "فكلما اتسعت المسافة بين ماضي اللغة وحاضرها قويت الحاجة إلى تفهم موضوعي"²، وهذا هو التفهم الذي يبحث عنه ناصف في المصطلح تفهم يعكس تفهم اللغة واستعمالاتها يحوي الماضي والحاضر على حد سواء إذن اللغة إشكالية أخرى من الإشكاليات طرحها ناصف لها علاقة بإشكالية المصطلح، وبالتالي اللغة والمصطلح في علاقتك متشابكة يخدم كل منهما الآخر.

3 - إشكالية قراءة المصطلح النقدي القديم في ضوء النقد المعاصر:

إن الإشكالية الأساسية للمصطلح النقدي عند ناصف المصطلح النقدي عند ناصف هي ثنائية التراث والحداثة وقد تحدث عنها مطولا في كتابه، ثم إنه تحدث عنها بشكل مفصل في مقاله النقدي (المصطلح النقدي) في كتابه النقد العربي نحو نظرية ثانية، وقد خصصنا له دراسة سنعرضها فيما بعد، وإن كلام ناصف يتمحور كما قلنا حول ثنائية الحداثة والتراث أو قراءة المصطلح النقدي القديم في ضوء النقد المعاصر، فقد لاحظ ناصف قصر وعجز تلك القراءات التي أدخلت المصطلح النقدي في متاهة وأزمة فالإشكالية إشكالية القراءة الواعية "فكيف يمكن للنقد العربي الحديث أن يسترد النصوص القديمة ويعيد استكشافها ويقف على أديبتها ما دام لم يشرع في مناقشة مصطلحات القدامى في ضوء ما تقوله النصوص ومنجزاتها بدل أن يقرأ النصوص الإبداعية في ضوء تلك المصطلحات التي محت النصوص ومحت طابعها الانشقاقي؟ لذلك سيعاد مأزق المصطلح الظهور بشكل أثر عنفا وأشدًا وبلا عند تعامل هذا الخطاب النقدي العربي المعاصر مع المصطلحات والمفاهيم المستقدمة من الثقافات الغربية"³.

فالوفد خطير إذا قرئ في بيئة ليست بيئته، الحداثة لمن استحدثها أو بعبارة أخرى المناخ الحداثي له مصطلحاته وخلفياته وقضاياه التي تواكبه وتشد على يده، فمن غير المنطقي وغير الواقعي دراسة مصطلح نقدي غربي بعلائقه الفلسفية ومرجعياته الخصوصية والإبستمولوجية في بيئة لا تمد لهذا المصطلح بصلة، هذا ما يجعل المصطلحات النقدية العربية في منتهى الوهن والضعف، في المقابل مصطلحات إبداعية عالية، لأن المصطلح

¹ مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص: 14.

² المرجع نفسه، ص: 51.

³ محمد لطفي اليوسفي، قراءة في المصطلح النقدي، مجلة جامعة الأقصى، مجلد 14، العدد الأول، 2010، ص: 44.

المنقول يظل غريبا وتظل دلالاته محجوبة نعاني من الضبابية، وإذا شاءت الصدفة واستقر المصطلح بشكل ما فلا يعيش طويلا بل مصلحة آنية تصنعها الحاجة الملحة فقط.

وعلى هذا الأساس "يرى ناصف اننا قد أسأنا استخدام الأدب في مجتمعنا العربي، حيث تعاطيناه من مآخذه السهلة الجاهزة، فعرفنا في لجة التباينات والتناقضات الصارخة التي نعاني منها الآن"¹، وهذه جوهر الإشكالية عند ناصف هي الأخذ بالسهل الذي يؤدي بالنقد وبالمصطلح إلى مزلق الأزمات والمخاطر، فمصطفى ناصف ينفي ويستنكر ما يشبه الجاهز واللين في ممارسة النقد العربي ثم إنه يرى أن النقاد حولوا النقد العربي إلى طلل يبكى عليه، فموقف ناصف واضح وجلي من الإشكالية وهي إخراج النقد ومصطلحاته من دائرة خدمة الأدب إلى دائرة أوسع وأشمل هي تحليل المواقف الثقافية للمجتمع ويقصد بها المجتمع العربي.

وخلاصة ما سبق نستنتج أن "نصطفى ناصف" تتشكل إشكالية المصطلح عنده بالتدرج أي أنه لم يتكلم عنها بشكل مباشر وجلي وبصورة كاملة إلا أنه في مؤلفه الذي بين أيدينا "النقد العربي نحو نظرة ثانية" فقد خص بالدراسة المصطلح النقدي في فصله الأول، اما باقي المتون فقد أشار إلى المصطلح النقدي واشكاليته بصورة غير مباشرة كما ذكرنا سابقا، في قضايا كاللفظ والمعنى واللغة والحداثة والتراث إلى آخره من القضايا النقدية والبلاغية التي تشير إشكالية المصطلح النقدي لأن بين هذه المواضيع والقضايا علاقة بالمصطلح النقدي واشكاليته.

¹ فاطمة ناعوت، الخروج بالنقد العربي من حيز النص إلى فلك التوجه الثقافي، 26 ماي 2018، علما لساعة 21:38